الخصائص السميائية لجملتي البدء والاختتام

في "القصيدة الثالثة" من كتاب الأم

عصام واصل

العراق

اهتمت الدراسات السميائية على اختلاف مدارسها وتوجهاتها في الآونة الأخيرة اهتماما ملحوظا بالعتبات النصية seuils، لما لها من مقدرة على توجيه المقروئية وتحديد آلياتها (في معظم الأحيان)، وقد بلورها وأرسى مبادئها وقواعدها مؤخرا "جيرار جينيت" Gerard Genette، في كتابه عتبات، الذي قسمها فيه إلى قسمين، عُنِيَ الأول منهما بالعتبات الفوقية، بينما عُنِيَ الثاني بالعتبات المحيطة، وما يهم هنا هو جزء من العتبات الداخلية للنص، وهي الجملتان البدئية والختامية، والمواقف التي يتضمنها كل منهما، وكذا بنياتهما العاملية التي تتضمنها، أي أننا سنتناول هذه العتبات من وجهة نظر منهج مدرسة باريس السميائية مع الاستعانة ببعض آراء جينيت. وينبغي الإشارة هنا إلى أن جينيت لم يهتم بالجمل الاختتامية، أو يدرجها ضمن العتبات النصية.

أ–الخصائص السميائية للجملة البدئية:

تمثل الجمل البدئية مفاتيح سميائية في النص، لا تقل أهمية عن بقية العتبات النصية التي تسهل عملية تلقيه، و(قد) تسهم في تفكيك شفراته، وتحديد أشكال معناه، ومن ثم استكناه بناه ومضامينه السميائية التي ينبني عليها، وتبدأ منذ أول نقطة مفضية إلى التخييل، وتنتهي عند أول تحول وانتقال من وضعية إلى أخرى إن دلاليا أو تركيبيا، إلا أن الجمل البدئية وكذا الختامية –عموما– لا تشبه الجمل النحوية من حيث تراكيبها، فالجملة النحوية لها أركانها كما هو معروف في القواعد النحوية، ولا مجال للخوض فيها هنا. إن الجمل البدئية في النصوص جمل نصية وليست بالضرورة جملا نحوية؛ لأنها قد تتكون من جملة نحوية أو فقرة أو أكثر من ذلك، ومن وظائفها أنها تقدم فكرة مصغرة عن النص، و/أو تختزل مضامينه وتثير فكر القارئ تمهيدا لإدخاله في عملية قراءة النص –كما هو حاصل مع النص قيد

القراءة-، وتقدم رؤية كلية عنه، وجملة من الترقبات، والتوقعات لما سيأتي من بنى نصية درامية تجسد الأحداث وأبعادها.

ولكي يدرك المتلقي هذه الوظائف أو غيرها في جملة بدئية ما فإن ذلك يحتم عليه تفكيكها إلى أصغر وحدة خطابية فيها، ومن ثم تركيبها وفقا للمعطيات والآليات التي تقترحها النظرية ويستوعبها المنهج المشتغل عليهما، ويوحي بها النص وما يفرضه من رؤى وعلامات.

يقترح النص بعد القراءة والملاحظة المتأنيتين، أن الجملة البدئية تتمثل في الملفوظ التالي:

"في السماء،
على الأرض،
ما كان إلا الشتاء.
النوافذ مغلقة
والشوارع خالية
كيف؟
من أي نافذة سقط الموت"(1).

إن اختيار هذا الملفوظ جملة بدئية لم يأت عبثا، أو اعتباطا، بل هو ناتج عن اختبار وملاحظة نظريا ومنهجيا، وأول مؤشر منهجي جعلها صالحة لذلك هو أنها قدمت حالة الذات ووضعها الفكري والاجتماعي القائم بشكل مختزل، بالإضافة إلى تقديم الفضاء المحيط بها جامدا مخيما عليه السكون والرتابة والجمود؛ ليشحن الحالة الفكرية للذات دلاليا، وتقدم -إضافة إلى ذلك- الملفوظ المحوري الذي يعد بؤرة التحول والمثير المركزي في النص: (**من أي نافذة سقط الموت**) في بدايتها، وعند نهايتها تعلن انتهاء الاختزال الكامن فيها، إيذانا بتفصيل ما أجمل بعدها وتوضيح أسباب الاختزال، وحيثيات قلق الذات وكذا أسباب جمود المكان وخلوه وسيطرة الشتاء عليه والبرودة الكامنة فيه، ونوافذه المغلقة، بإعلان الذات المتلفظة عن تفصيل ما أُجْمِل في بداية هذه الجملة عبر اشتغال الذاكرة (الاسترجاع):

"كنت وحيدا أمام السرير
الذي بدأ الموت ينزع عنه الحياة،
وأمي تقاوم
تلهث"(2).

وهكذا، فإن الجملة البدئية تتمفصل في مقطعين قائمين على التوازي التركيبي والدلالي هكذا:

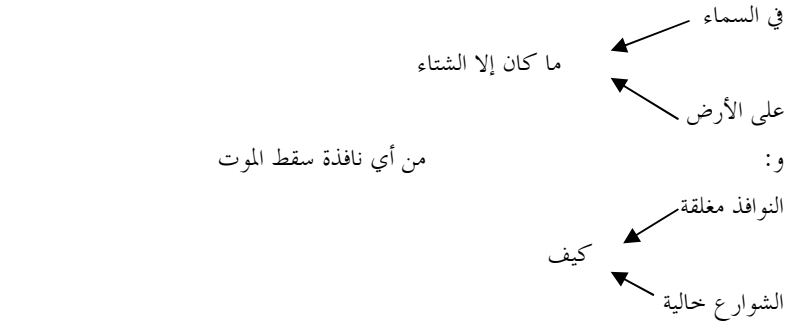

إن الملفوظ الاستفهامي البسيط (كيف) يأتي ختاما لهذه الجملة، وبداية ممهدة للاستفهام المركب الذي يليه –(من أي نافذة سقط الموت)– الذي يمثل بدوره بداية ممهدة لاشتغال الذاكرة السـردية، وجعل القارئ متلقيا محوريا لما سيأتي بعدها من اشتغال سردي لحكاية الموت، وأسرارها التي تكشف عن حالة الذات، وعلاقتها بموضوعها الرئيسي (حياة الأم/بقائها)، وكذا عن حالة الأم التي تذوي دون أن يستطيع الابن أن يقدم لها أيّة مساعدة، فهو ذات حالة فاقدة للقدرة –وإن كانت ممتلكة لـلإرادة فهي إرادة معطلة– تقف في مواجهة ذات فعل ممتلكة لمواضيع الجهة المتمثلة في القوة والإرادة ومعرفة الفعل ووجوبه.

وتنطلق هذه الجملة البدئية من لحظة قلق وارتباك وهدوء حزين، وخلو يسيطر على الشـوارع التي يمثل الشتاء محورها وبطلها الرئيسي الذي يهيمن على كل شيء فيها، إنها خالية إلا منه..

إنها تقدم حالة ذات متسائلة عن كيفية الصمت بشكل معلن وعن أسبابه بشكل ضمني. وتتميز هذه الذات بعلامة مائزة وهي الافتقار المتمثل في عدم الامتلاك لمعرفة تحركات الموت؛ بوصف المعرفة إحدى آليات موضوع الجهة؛ الذي يمثل موضوعا "يكون اكتسابه ضروريا لتأسيس كفاءة فاعل منفذ من أجل تحول رئيسي"(3)، وهي علامة تزج بالقارئ في عمق التساؤل وتسمه –كنتيجة لذلك– بنفس السمة فيبدو فاقدا للمعرفة أيضا، فإذا كانت الذات الساردة تمتلك معرفة الأحداث السابقة لسـقوط الموت، وفاقدة لمعرفة الأحداث التالية لسقوطه فإنها تسعى إلى الاتصال بها conjonction عبر الممارسة، والاقتراب من الأسباب، واستكشافها معاينةً عبر المحكي، فإن القارئ سيكتشفها من النص على عكس الذات، أي أن مصدر المعرفة مختلف عند كل منهما، فالذات الساردة تستقيها من الواقع والتجريـب والبحث عنه في الواقع المحيط، بينما الذات القارئة تستقيها من النص، إن الـذاتين تميزهمـا علامـة الانفصال عن المعرفة، وتختلفان في كيفية ومصدر الحصول عليها.

وقد انتظمت الجملة البدئية وفق بنية عاملية تشكلت من:

المرسل (الطمأنينة) ← موضوع القيمة (الاستقرار)← المرسل إليه (الذات)الابن.

المساعد (الهدوء) ← الذات(الابن) ← المعارض (سقوط الموت فجأة).

تمثل الطمأنينة مرسلا باعثا على الاستقرار الذي يمثل فيه الذات متصلا بموضوعه، ويمثل الهدوء وخلو الشوارع مساعدا على هذا الاستقرار، وعلى اتصال الذات/الابن بهذه القيمة الايجابية، غير أن ثمة معارضا يبرز على مسرح الأحداث، فيحدث تحويلا لهذه القيمة، التي لا يتم الكشف عن أبعادها وأهدافها واتساعها إلى بنية التحول المحورية في النص فتحول قيمة الاستقرار إلى قيمة عدم الاستقرار فيبدأ الموت بسلبها ومن ثم يسعى إلى سلب قيمة حياة الأم.

ب–الخصائص السيميائية للجملة الختامية:

فإذا كانت الجملة البدئية عادة تقوم بوظيفة رئيسية هي اختزال النص، وتقديمه بشكل مكثف، وتعمل على إغراء القارئ بتفكيك المتن، بحثا عن مضمرات الجملة البدئية، ومضمرات النص التي اختزلتها هذه الجملة، ومن ثم تأسيس القارئ كفاعل في برنامج الاتصال بالمعرفة، وامتلاك موضوع الجهة، ينخرط من خلاله في عملية الكشف والقراءة، فإن الجملة الختامية تقدم ما يشبه الإجابات التي تضمرها الجملة الافتتاحية، وتتحدد بأول لحظة ينتهي فيها الصراع والتأزم، ويتم الانتقال فيها إلى ما يشبه وضعية الاستقرار، أو ما يوحي بالاستقرار، ويشي بأن ما سيأتي هو خاتمة، أو تلخيص، واختزال لما سبق منذ الجملة البدئية حتى آخر فقرات النص حيث الاستقرار النهائي نصيا على الأقل، وتقوم بوظيفة رئيسية تتمثل في اختزال ما فُصِّلَ في النص، إنه اختزال مختلف عن الاختزال الذي تقوم به الجملة الافتتاحية، فالأولى تحمل قبل التفصيل، والثانية تختزل بعده.

ويقترح النص جملته الختامية بـــ:

"يا أيها الموت رفقا
بهذا الكيان الرقيق.
لم يعد جسدا
صار طيفا
ولكنها الروح
ساكنة الظل
حين يجف تضيء
ولا تسأل البيت
تخشى الفراق

وتأبى التروح
كأني بها تتعذب حزنا عليه
وشوقا إلى عالم الضوء
والصحوة الأبدية"(4).

إنها –عبر اختزالها– تقدم الخلاصة النهائية التي توصلت إليها الذات من اتصال وانفصال عن موضوعها، وتقدم شحنة معرفية للمتلقي، فالذات في الجملة البدئية تتدرج في التحول والفقدان، بينما في الملفوظ الختامي تعيش التحول الجذري، وبداية استعادة الاستقرار المشروط بانتقال الأم إلى عالم الضوء.. فإذا كانت الذات في الجملة البدئية متسائلة قلقة فإنها في الجملة الختامية مستسلمة منكسرة، إنها تقدم إجابات عن التساؤلات المطروحة في الجملة الافتتاحية، وتعيد الذات القارئة والساردة إلى حالة امتلاك لموضوع الجهة المتمثل في المعرفة، وبذلك تدخل في تضاد مع الحالة التي تمثل انفصالا عن المعرفة، مع الحالة الختامية التي تمثل اتصالا بالمعرفة وفقا للترسيمة التالية:

–**الحالة البدئية**= الذات: متصلة بعدم المعرفة، قلقة، مضطربة، متسائلة.

–**الحالة الختامية**= الذات: متصلة بالمعرفة، مقتنعة، راضية، مستسلمة..

وهاتان الحالتان تجسدان بالضرورة كيفية التحول المحوري في النص المتمثل في الانتقال والتحول المحوريين في حياة الابن..، وحياة الأم و(صراعها مع الموت) وانتقالها إلى حالة الموت والانفصال عن الحياة، وامتلاكها لحياة أخرى.

فإذا كانت الجملة الافتتاحية في النص تقدم حالة مختزلة وخطوطا مقتضبة عن أمر لا يتم الكشف عنه إلا بعد الانخراط في تفاصيل النص فإن الجملة الاختتامية تقدم خلاصة للنص وما آلت إليه ذات الحالة من فُصْلَةٍ عن موضوعها وامتلاكها للمعرفة، واستسلامها لما آل إليه الوضع تسليما مطلقا، واستبدال حالة الخوف والارتباك التي في مفاصل النص إلى حالة أمنيات يتمناها الذات من الموت، أو يطلب منه الرفق بالأم.

كما أنها تقدم حالة ذاتين؛ ذات الحالة/ الابن السارد في لحظة استسلام، ومن خلالها تتقدم حالة ذات متضمنة هي حالة الأم التي أصبح كيانها طيفا و لم يعد جسدا، لأنها أصبحت ساكنة تخشى الفراق، وفي نفس الوقت تحن إلى عالم الضوء، إنها بين أمرين؛ إذ إنها ستدخل في فُصْلَةٍ عن عالم الدنيا الموصوف ضمنيا بعالم الظلام، ووُصلة بعالم الآخرة الموصوف علنا بعالم الضوء. وبذلك تتمثل البنية العاملية للجملة الختامية في:

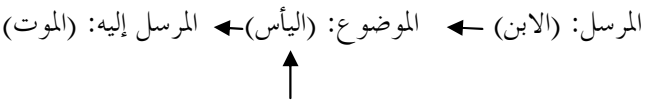

بالإضافة إلى:

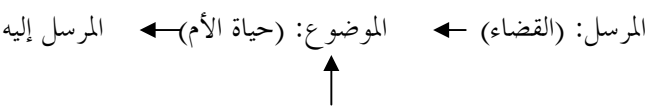

فثمة بنيتان يظهر فيهما الابن مانحا متنازلا في الأولى، ويظهر الموت مهيمنا في الثانية، في الأولى يكون الذات (الابن) منفصلا عن القيمة الايجابية (حياة الأم) ممتلكا لليأس الناتج عن هيمنة الموت ومساعدة التسليم بالواقع المحتوم، فإذا كان المرسل هو "الذي يدفع "الذات" للاتصال بـ"الموضوع""(5)، فإن الابن بذلك يقوم بهذا الدور كما رأينا، إذْ إنه يتحول في آخر المطاف إلى مرسل وبشكل أكثر دقة إلى ما يشبه الواهب الذي يتنازل عن موضوعه بشكل أو بآخر ويكون بذلك مساعدا له على الاتصال بموضوعه.

بينما في الترسيمة الثانية يكون المرسل القضاء الذي يساعد على اتصال الموت بالموضوع المستهدف (حياة الأم) بمساعدة قرب الأجل ومنح الابن وتخليه عن موضوعه بناء على قوى غيبية تلزمه لا شعوريا بالتسليم بها.

يمكن أن نستنتج من بنيتي الافتتاح والاختتام أن الابن (الذات)/الشاعر (المقالح) في معظم نصوصه صوفيّ في رؤيته للموت بوصفه بوابة الحياة الأبدية، ووسيلة عبور إلى الاتحاد أو اللقاء مع الذات الإلهية، إلا أنه حينما تعلق الأمر بأمه تحول الأمر نوعا ما، فأصبحت رؤيته إليه طبيعية (دنيوية) فنلمح مفاجأته بالموت في البدء واضطرابه وتساؤله عن مكان وزمان مجيء الموت، ما جعل رؤيته الصوفية تلك تغيب في المفتتح لكنها تعود في الاختتام، وما بين البنيتين يتواتر الصراع بين الرؤيتين حادا متدرجا في الاتساع والتلاشي ليستقر في الأخير حيث تتسع آفاق الانتقال الذاتي (النفسي للذات) والموضوعي (الأم) إلى عالم الضوء، كل ذلك نتيجة لحاجة الذات الملحة في أن تبقى الأم إلى جواره.

الهوامش

1–عبد العزيز المقالح، كتاب الأم، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ط: 1، 2008م: 19.

2–المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

3–فريق انتروفرن، التحليل السيميائي للنصوص– تـــ: حبيبة جرير، مراجعة: عبد الحميد بورايو، دار نينوى للدراسات والنشـــر والتوزيع، دمشق، ط: 1، 2012م: 46. 4–عبد العزيز المقالح، كتاب الأم: 21، 22.

5–جيرالد برنس، قاموس السرديات، تـــ: السيد إمام، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، ط: 1، 2003م: 10.

صدر حديثا